

الشيخ محمد الشاذلي النيفر وجهوده في علوم القرآن

د. محمد يوسف الشرجي
كلية الشريعة، جامعة دمشق
(سوريا)

مقدمة :

تعود معرفتي بالشيخ محمد الشاذلي النيفر إلى قرابة عشرين سنة، عندما التحقت بجامعة الزيتونة في سنة 1989م للحصول على شهادة دكتوراه الدولة في علوم القرآن، موفداً من قبل جامعة دمشق، وقد التحقت بدروسه التي كان يعطيها في منزله، ومن جملة ما قرأنا موطأ مالك، وحاشية زروق على الرسالة، وغيرهما.

ثم ترأس لجنة مناقشة أطروحة الدكتوراه التي أعدتها عن (الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن^(*))، وكان الشيخ قد فتح لي قلبه قبل بيته ومكتبته، فكنت كثيراً ما أسأله عن أمور تخص الأطروحة، ويجيبني عنها بكل رحابة صدر. وقد صور لي من مكتبته الخاصة مخطوطة في غاية الأهمية لتلميذ السيوطي اسمها (بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين) للشيخ

(*) أشرف على الأطروحة الأستاذ أحمد باكير، وبعد وفاته تابعت الأستاذة وسيلة بن حمدة الإشراف عليها، ونوقشت في 1993/09/16.

عبد القادر الشاذلي. ثم حصلت منه على إجازة بالحديث المسلسل بالأولية، وبموطأ الإمام مالك، وبالكتب الستة وغيرها بتاريخ 1990/1/20.

وحينما أوفدت في نوفمبر 2008 في مهمة علمية لمدة أربعة أشهر للقيام ببحث علمي بعنوان (إسهامات علماء الإسلام في علوم القرآن، من مطلع القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم) اخترت جامعة الزيتونة لإنجاز هذا البحث.

ولما زرت مكتبته، وعرضت على ابنه الطاهر النيفر (حافظ مكتبة أبيه حالياً) موضوع بحثي، أطلعني على ثلاثة مغلفات مكتوب على ظهرها "دراسات قرآنية"؛ وعلى كراريس كان الشيخ يدون فيها محاضراته ودروسه التي كان يلقيها على طلبته في جامعة الزيتونة، مكتوب عليها "دروس في علوم القرآن"، ولا تزال بخط يده، وهو خط مغربي قديم، وبعد قراءتها أدركت مدى أهميتها، فزمت على جمعها وإخراجها اعترافاً بفضل صاحبها ولكي يستفيد منها طلاب العلم.

1 - التعريف بالشيخ محمد الشاذلي النيفر :

هو الشيخ محمد الشاذلي النيفر ابن الشيخ العالم قاضي الجماعة محمد الصادق النيفر (ت : 1937م) ابن المدرس الشيخ محمد الطاهر النيفر الثاني (ت : 1839م)، ولد في 29 جوان 1911م في مدينة تونس في بيت علم ومجد وشرف، تتلمذ على والده وعلى نخبة من علماء تونس مثل الشيخ عبد العزيز جعيط، والشيخ الحطاب بوشناق، الذي كان يلقب بسبيويه تونس، وغيرهم. تولى عدداً من المناصب الإدارية، فكان عميداً للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، ونائباً في مجلس النواب، وإماماً وخطيباً بجامع النفاثة المعروف بباب الأقواس بالحاضرة من سنة 1964م إلى وفاته، ورئيساً لرابطة الجمعيات القرآنية بتونس، وعضواً في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. له مؤلفات عديدة منها : تفسير مدرسي لجزء عم وتبارك، والبوصيري حياته وأدبه. وله تحقيقات علمية كثيرة أهمها "المعلم" للمازري؛ وتحقيق قطعة من موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن زياد؛ و"مسامرات الظريف" للشيخ محمد السنوسي، وغيرها. وذكر له حمادي الساحلي أثناء ترجمته أكثر من ثلاثين بحثاً منشوراً

في مجلات مختلفة⁽¹⁾، وليس فيها ما سأذكره للشيخ من إسهامات في علوم القرآن. وطبع له بعد وفاته كتاب (الأسطول في اللغة والأدب والتاريخ)، سنة 2008م في بيت الحكمة في تونس، بعناية ابنه الطاهر النيفر وآمال بن حمزة. وهناك بعض الدروس والمحاضرات في علوم القرآن ألقاها على طلبته في جامعة الزيتونة، مازالت مخطوطة بخط يده.

توفي الشيخ النيفر في 4 شعبان 1418 هـ، الموافق 1997/12/4م، وخلف أبناء بررة، ومكتبة حافلة جعلها وفقاً لطلاب العلم.

لقد كان الشيخ علماً من أعلام الفكر الإسلامي، ورائداً من رواد البحث العلمي في تونس⁽²⁾، قال عنه صديقه محمود شمام : "العالم الجامع، فهو أديب، شاعر، فقيه، مؤرخ، باحث، محقق، دارس، محاضر، مختص بمعرفة المؤلفات والمؤلفين، وجامع للنادر من المصنفات، ومطلع على محتوياتها."⁽³⁾

2 - جهوده في علوم القرآن :

أ - التعريف ببحوثه في علوم القرآن :

أثناء زيارتي لمكتبة الشيخ، في شتاء عام 2009 م، وبحثي عن إسهاماته في علوم القرآن، وجدت ثلاثة مغلفات مكتوب عليها دراسات قرآنية (بخط مفرس المكتبة) وهي عبارة عن مجموعة بحوث ومقالات للشيخ نشر بعضها في مجلات مثل (القرآن والإنسان) سلسلة مقالات منشورة في (مجلة جوهر الإسلام، السنة 1، العدد 9 من 4 فيفري 1968-1969م)، و(القرآن مصدر العزة والسعادة) منشور في (مجلة المنهل) السعودية، المجلد 33، السنة 38،

-
- (1) الساطلي (حمادي) : " العلامة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، علم من أعلام الفكر الإسلامي، ورائد من رواد البحث العلمي في تونس"، بحث منشور ضمن بحوث ودراسات مهداة إلى الشيخ محمد الشاذلي النيفر، (تكريماً للشيخ في حياته)، إعداد مجموعة من الأساتذة، وتقديم محمد المختار السلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994 م، ص 43 - 64. وهناك بعض البحوث ألفت في اليوم الدراسي الذي أقيم بمناسبة مرور عشرة أعوام على وفاة الشيخ، في بيت الحكمة، ماي 2008.
 - (2) وهو عنوان بحث عن الشيخ النيفر لحمادي الساطلي، منشور ضمن كتاب "بحوث ودراسات مهداة إلى الشيخ محمد الشاذلي النيفر"، ص 43.
 - (3) شمام (محمود)، "محمد الشاذلي النيفر المؤرخ"، مقال ضمن بحوث ودراسات (المرجع السابق)، ص 73.

الجزء 10، شوال 1396 هـ / نوفمبر/ديسمبر 1972م) و(الإحياء القرآني) منشور في (مجلة المنهل) السعودية أيضاً : المجلد 34، السنة 39، الجزء 11، ذو القعدة 1397 هـ، نوفمبر/ديسمبر 1973م).

ومن هذه المقالات والبحوث التي لم تنشر بعد : (الموازنة بين الآلوسي وابن عاشور) و(الكتاب الذي لا يأتيه الباطل) و (القرآن هو الدواء) و(وسائل الوحدة في القرآن)، و (واجب الأمة نحو القرآن) و(الأوبة إلى القرآن) يدعو فيهما إلى تأسيس معهد قرآني، و(القرآن هو النور المبين) محاضرة أُلقيت بمناسبة توزيع الجوائز على الطلاب الحاذقين للقرآن الكريم سنة 1993 م، ومثلها محاضرة (وسائل الوحدة في القرآن الكريم) وهي كذلك بمناسبة الاحتفال بتوزيع الجوائز على الحافظين لكتاب الله تعالى، و(من عجائب القرآن)⁽¹⁾ وهي نفسها (من معجزات القرآن) وهو ما ورد في منظومة أبي العباس المقرئ (ت 1040 هـ/1630 م) حول فتح بيت المقدس عندما قال :

ومنه ما ابن برّجان أظهر في أخذ بيت المقدس المطهر
من قوله «بضع سنين» قبل أن يكون ثمّ كان طبقاً في الزمن

وخلاصة هذا الحدث التاريخي كما ذكره ابن خلكان في تاريخه المعتمد بما في ترجمة ابن زكي الدين ونصه : " ولما فتح السلطان المذكور (أي صلاح الدين الأيوبي) مدينة حلب يوم السبت ثامن عشر صفر سنة تسع وسبعين وخمسمئة أنشده القاضي محي الدين المذكور قصيدة بائئة أجاد فيها كل الإجادة، وكان من جملتها بيت هو متداول بين الناس وهو :

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشّر بفتوح القدس في رجب

قال الشيخ النيفر فكان كما قال، فإنّ بيت المقدس فتحت لثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، وقيل لمحي الدين من أين لك هذا ؟ فقال :

(1) والعجيب أنّ الشيخ النيفر كان مغروراً بهذه العجبية، فأعاد كتابتها ثانية وبأسلوب مختلف عن الأول، مع المحافظة على المضمون، وسماها (من معجزات القرآن).

أخذته من تفسير ابن برّجان وذلك من قول الله تعالى : «فِي بَضْعِ سِنِينَ» [الروم : 4].

قال الشيخ النيفر : " وأنا منذ اطلّعت على هذه الحادثة التاريخية أبحث عن الكيفية التي استخرج بها ابن برّجان هذا التاريخ الصحيح قبل سنوات من وقوعه فلم أظفر بذلك إلا بعد مدة طويلة في شرح الشيخ عlish (ت 1292 هـ/ 1875 م) لمنظومة المقرئ "إضاءة الدجنة"، وذلك أن ابن برّجان استخرج من قوله تعالى «فِي بَضْعِ سِنِينَ» [الروم : 4] تاريخ فتح بيت المقدس، وتوضيحه أن الباء اثنان، والضاد تسعون، والعين سبعون، والسين ثلاثمئة، والنون خمسون، والياء عشرة، والنون خمسون، ومجموع ذلك اثنان وسبعون وخمسمئة، على طريقة المغاربة ⁽¹⁾، وزاد عليه معنى البضع عشرة فصار اثنين وثمانين وخمسمئة، والبضع من الثلاث إلى العشرة كما ذكر الإمام النسفي، وابن برّجان أخذ بالأخير، فالجملة خمسمئة واثنان وثمانون وهو غاية امتلاك الإفرنج بيت المقدس إذ انتزع منهم في سنة ثلاث وثمانين بعد خمسمئة، ثم ألف هذه المقالة وأنه أخذ ذلك من تفسير ابن برّجان ⁽²⁾.

وفي نهاية مقال (من عجائب القرآن) قال الشيخ في آخره : " ولا غرابة في ذلك، فإنّ كتاب الله تعالى كما أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلّم بقوله "لا تنقضني عجائبه" كما أخرجه الترمذي ⁽³⁾.

والأمل لا ينقطع - إن شاء الله تعالى - من استرجاعه رغم استيلاء إسرائيل عليه، وإسرافها في النكاية، بهيّة إسلاميّة صادقة، وعزيمة متواصلة" ⁽⁴⁾.

وضمن نشاط (رابطة الجمعيات القرآنية) التي ترأسها الشيخ النيفر، كتب مقالاً بعنوان (خمس وعشرون سنة في خدمة القرآن الكريم) في 16 رمضان 1414 هـ/ 27 فيفري 1994 م).

(1) يقصد في ترتيبهم لحروف المعجم، فإنهم يختلفون فيها عن المشاركة في " أبجد هوز حطي كلمن..."
(2) من مقال الشيخ النيفر، (معجزات القرآن الكريم)، مرقون ولم ينشر.
(3) في كتاب التفسير، باب ما جاء في فضل القرآن، رقم (2906)، 172/2.
(4) من مقال (من عجائب القرآن)، مخطوط لم ينشر بخط الشيخ، ق 4.

وللشيخ بحوث أخرى قيّمة غير منشورة منها : (السّنن الكونية الاجتماعية في القرآن) و(نشر القرآن) و(القرآن مصدر الحياة الإنسانية).

ب - التعريف بدروسه في علوم القرآن :

بعد أن نظرت في المغلفات الثلاثة التي عثرت عليها في مكتبة الشيخ، أطلعني ابنه الطاهر (حافظ المكتبة حالياً) على كرّاسة للشيخ مكتوب على غلافها "دروس في علوم القرآن" وهي عبارة عن مجموعة دروس ومحاضرات، ألقاها الشيخ على طلبته في جامعة الزيتونة كما يظهر من عناوينها، وهي موضوعات متنوعة في علوم القرآن مثل : أمثال القرآن، قصص القرآن، جدل القرآن، طريقة القرآن في الدّعوة، والبشارات والندارات، آي القرآن، سور القرآن، الاستعاذة، وذلك من خلال ما رأيته على بعض الأوراق التي كتب عليها الشيخ السنة الأولى، بالإضافة إلى كرّاسة فيها عدة محاضرات في الفقه والتفسير ومناهج المفسرين لطلبة السنة الثانية، وكرّاسة في تفسير أوائل سورة النساء، وتفسير بعض آيات الأحكام، وكرّاسة في طرائق التفسير لطلبة السنة الثالثة.

وفي محاضرة "البشارات والندارات" : حدّد الشيخ عناصر الموضوع على النحو التالي :

- تنوّع الطّريقة القرآنية،
- البشارة لغة،
- النّذارة لغة،
- إعطاء القرآن كل مقام حقّه،
- أمثلة من البشارات والندارات. (هكذا)

ثمّ انتقل إلى الأمثال، وقال : عناصر الموضوع، ولكنه لم يذكر شيئاً من عناصر الموضوع، ولكن في درس الأمثال يقول الشيخ : " المثل لغة : واحد هذه المادة التشبيه، يقال مثل بين يديه إذا انتصب، أي أشبه الصورة المنتصبة

فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول لقول كعب بن زهير (من البسيط) :

كانت مواعيد عرقوب لها وما مواعيدها إلا الأباطيل " (1)

ثم قال : " الأمثال جمع مثل بتحريك الثاء، وكذلك بسكونها، ذكر الزمخشري في الكشاف⁽²⁾ أن المثل في الأصل بمعنى المثل أي النظير، يقال : مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه، فالمثل والشبه يكونان بمعنى النظير إلا أن الشبه يكون بمعنى المشابهة يقال بينهما شبه بالتحريك أي مشابهة .

قال الشيخ : " ثم إن التساوي بين المثل والمثل إنما هو باعتبار الأصل، وعند المحققين أن المثل بالكسر عبارة عن شبه المحسوس، أي هو خاص بالمحسوسات، وفتحتها عبارة عن شبه المعاني المعقولة " (3).

ثم عرّف المثل في العرف فقال : " هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول الممثل مضربه بمورده"، وهذا نقل له من معناه اللغوي إلى معنى آخر عرفي، ثم شرح التعريف. وبعد ذلك قال : " ثم نقل المثل من معناه العرفي وأخذ لمعان ثلاثة هي :

- نقله للحال واستعارته لها مثل قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ [البقرة : 17].

- نقله للوصف واستعارته له نحو ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل : 60] أي الوصف الذي له شدة وكقوله ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ [الفتح : 29].

(1) من قصيدة بانث سعاد لكعب بن زهير، (أبو زيد القرشي) : جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد علي الهاشمي، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1401 هـ، 1981 م، 791/2؛ و(الأصهباني)، الأغاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت، دت. 94/17؛ وعرقوب : رجل يضرب به المثل في خلف المواعيد؛ (ابن قتيبة) المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط 1981، 4، م، ص 612.

(2) في الهامش يقول الشيخ : " الكشاف عند قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ [البقرة : 17].

(3) النيفر (محمد الشاذلي)، الأمثال في القرآن، مخطوطة، ق 24، (ضمن دروس في علوم القرآن).

- نقله واستعارته للقصة كقوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد : 35]⁽¹⁾ فيما قصصناه عليك من العجائب قصة الجنة الغربية، ثم أخذ في بيان عجائب تلك القصة ...

وبعد ذلك تحدّث الشيخ عن أقسام المثل وفائدة ضرب المثل إلخ⁽²⁾.

القصص القرآني :

وللشيخ النيفر محاضرات في القصص القرآني، ما زالت بخطّ يده، مهّد لها بمقدمة طويلة حول الأسلوب البرهاني والأسلوب القصصي، وقال : " تنوّعت أساليب القرآن في مخاطباته وتذكيره، فهو يخاطب القلب والعقل معاً، ويجمع الحق والجمال معاً،"⁽³⁾ وضرب على ذلك مثلاً من سورة (ق) وكيف استدل على البعث بعد الموت بهذا القياس الذي لا يملك العقل السليم إلا الإيمان به ، ثم قال الشيخ : " وكما خاطب العقل بمثل هذه المخاطبة المنطقية، خاطب العاطفة في القصص لتساهم القصة فيما يرمي إليه القرآن... ويأتي في القصة بالعظات البالغة كما أتى في الأدلة بالبراهين الدامغة، ولا تخلو القصة من أن تنجم من خلالها دعوة تناسب العبرة من القصة، فمثلاً قصة يوسف تلك القصة المتناسقة الشيقة يطلع لقارئها من أثنائها ما يغرس في النفوس العفة، ويربيها على الأمانة "⁽⁴⁾.

ثمّ شرح الشيخ لفظ القصة في اللغة والاصطلاح وقال : " إذا أردنا أن نتفهم معنى لفظ القصة، وما هو مفهومها لا نعجز أن نجد ذلك في كلام إمام من أئمة المفسرين وهو الإمام فخر الدين الرّازي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : 3] ، القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله في اللغة المتابعة، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : 11] أي اتبعي

(1) في تعليق للشيخ النيفر على حاشية، رقم 7، من تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، 1489، يقول الشيخ : " الظاهر أن الآية المرادة هنا هي التي في سورة محمد ﷺ، رقم، 10 انظر حاشية الشيخ زادة على البيضاوي، 1، 154، من القولة الرابعة".

(2) المصدر السابق، ق 29.

(3) النيفر (محمد الشاذلي) ، القصص (القرآني)، مخطوط بمكتبة الشيخ، ق 1.

(4) المصدر السابق، ق 3 - 4 (باختصار يسير جداً).

أثره...⁽¹⁾ ويقول الرّازي في موضع آخر : " والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدّين، ويرشد إلى الحقّ ويأمر بطلب النّجدة." ⁽²⁾

ثمّ يقول الشّيخ النّيفر : " إنّ الرّازي حاول محاولتين، فيما ذكره.

فأولاً : حاول التّقريب بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

وثانياً : أتى في تعريف القصص بتعريف ديني.

وقال : "عرّف الرّازي القصص بهذا التّعريف وقد صادف شاكلة

الصّواب، وأصاب المحزّ، لأنّ القرآن غرضه منها الهداية" ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : 111].

ثمّ تحدّث الشّيخ عن الغرض من القصص القرآني وقال : هناك هدفان

أساسيّان من إيراد القصّة في القرآن، وقد أوضح القرآن الكريم هذين الهدفين :

الهدف الأول : المساهمة فيما يرمي إليه القرآن عامّة من إفادة الهداية،

والوعظ والإرشاد، والنّصح، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ

اللّهِ فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : 176]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : 111].

الهدف الثاني : تنبّط الرّسول الكريم ﷺ فيصبر كما صبر أولو العزم

من الرسل، قال تعالى ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ،

وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : 120].

ثمّ تابع الشّيخ الحديث عن الطّريقة القرآنية في القصص⁽³⁾ وقال :

" القصّة لم ترد في القرآن لأجل سرد أخبارها، وإنّما ينظر إليها من زاوية

خاصّة، فلا يؤخذ عليه أنّه لا يتناول القصّة من جميع أطرافها، ولا يتسلسل في

إيراد حوادثها، لأنّ القرآن يأخذ من القصّة بحسب الهدف وهو التهذيب

والوعظ، ومع هذا لم يخلُ القرآن من قصة محبوكة موصولة متسلسلة كما في

(1) (الرّازي) : التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، د.ت، 85 - 18.

(2) التفسير الكبير، 8، ص 83 - 84.

(3) انظرها في القصص القرآني، ق 11.

قصة يوسف وإخوته التي فيها آيات للسائلين، لكن في معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها، لأن فيه تحقيق الغرض، وقد يلمح القرآن ويشير إلى القصة تلميحاً اعتماداً على شهرة القصة.

وقد يتكرّر جزء القصة في القرآن إذا استدعى المقام تكرير هذا الجزء.⁽¹⁾

جدل القرآن :

وقد وجدت ضمن دروسه القرآنية جدل القرآن وقال : " أنزل القرآن وخطب به قوم خصمون وجادلهم على إثبات ما أنكروه ممّا جاءتهم به الرسل وعلى إبطال ما ألفوه وتعوّدوه من ضلالات، وإثبات هذا ونزع ذلك ليس بالأمر الهين السهل، بل هو يحتاج إلى إقناع هؤلاء حتّى يسيروا على الحقّ وحتى يقلعوا عن الضلال.

ومن أكبر الموضوعات التي حدث فيها الجدل : توحيد الله، واليوم الآخر، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحقيق هذه الأغراض وغيرها اشتمل القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان وآية وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلاّ وكتاب الله تعالى قد نطق به.

لكن أورد الله تعالى على عادة العرب فلا يجري الجدل القرآني على هذا النظام المنطقي الجاف تذكر فيه المقدمة على نظام خاصّ تتبعها النتائج، وذلك لأنّ القرآن لم ينزل لهداية طائفة خاصّة لها ثقافتها الخاصة، بل نزل لهداية الناس جميعاً وما به من أدلة يلقي في النفس الاقتناع، ويملأ القلب باليقين سواء في ذلك العامة والخاصة "... ثمّ نقل الشيخ النيفر عن الزركشي في البرهان قوله "أخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة

(1) القصص القرآني، ق 12.

تشتمل على أدقّ دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجّة، وتفهم الخواصّ من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم غيرهم.⁽¹⁾

ثمّ تابع الشّيخ النّقل عن الزّركشي في حديثه عن جدل القرآن قال ومن ذلك الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب وأنواع ... وذكره⁽²⁾.

عدد الآيات :

ومن دروس الشّيخ النّيفر القرآنيّة عدد الآيات، فعرف الآية في أصل اللّغة، وفي الاصطلاح، وتكلم عن تقسيم الآيات، وأنّ من الآيات آيات طوال ومنها آيات قصار. وأطول آية هي آية الذين فإنّها مئة وثمانية وعشرون كلمة، وهي في سورة البقرة؛ وأقصر آية فيه والضّحى وهي خمسة أحرف من اللفظ. وليس في القرآن كلمة وحدها هي آية إلّا «مُذْهَمَاتَانِ» في الرحمن. ومعرفة الآيات تتوقّف على التّوقيف، واستدلّ على ذلك بعدد «المصّ» آية، ولم يعدّوا نظيرها وهي «المر» آية، وعدّوا «يس» آية، ولم يعدّوا نظيرها آية⁽³⁾.

ثمّ تكلم عن عدد أيّاي⁽⁴⁾ القرآن، وقال : " قد اختلف عدد أيّ القرآن على حسب اختلاف العادين، والعدد منسوب إلى خمسة بلدان ⁽⁵⁾ وذكرها.

سور القرآن :

وللشّيخ النّيفر محاضرة عن سور القرآن فقال : "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم".

(1) من البرهان : 24/2، وقد شطب الشّيخ على عبارة الرّازي "الخطباء" ووضع بدلاً منها "غيرهم"، انظر جدل القرآن، ق 2.

(2) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، مصر، ط 1، 1376 هـ / 1957 م، 26/2، والنّيفر (محمد الشاذلي)، جدل القرآن، مخطوط (ضمن دروس في علوم القرآن)، ق 4.

(3) النّيفر (محمد الشاذلي)، عدد الآيات، مخطوط (ضمن دروس في علوم القرآن)، ق 1-2.

(4) هكذا ذكرها الشّيخ بهذا اللفظ، وهي كلمة صحيحة فصيحة، قال في اللسان : " وجمع الآية أي وأيأي وآيات" (ابن منظور) لسان العرب، دار المعارف، مصر، دت.

(5) المصدر السّابق، ق 4.

السّورة لغة واصطلاحاً :

اختلفت الآراء في كون السّورة بالهمز أو بدونه، من جعل الواو أصلية قال إنّها مأخوذة من سور البلد لارتفاع رتبتها وإحاطتها، كذا في الصّاوي على⁽¹⁾ الجالين، وفي التاج سمّيت سورة لكونها محيطة بآيات الأحكام إحاطة السور بالمدينة، ومثله في البرهان⁽²⁾ للزركشي، أو هي مشتقة من سورة البناء وهي القطعة منه. قال في البرهان : " ومنهم من شبّها بسور البناء، أي القطعة منه أي منزلة بعد منزلة"⁽³⁾، ثم هي وإن كانت مأخوذة من السّورة، إلّا أنّها يفترقان في الجمع، فالسّورة تجمع على سور بضم السين وفتح الواو مثل الصّورة بالصّاد، تجمع على صور، وأمّا سورة البناء فتجمع على سور أي بضم السين، وسكون الواو مثل صوفة وصوف إلخ.

ثم يتابع الشيخ الكلام عن المعنى اللغوي، مقتبساً من القرطبي والأزهري، والشهاب الخفاجي وغيرهم.

وبعد ذلك انتقل للكلام على المعنى الاصطلاحي فقال : " السّورة في الاصطلاح : " قال الجعبري : حدّ السّورة قرآن يشتمل على ذوات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات، وتقسيم القرآن سوراً لحكم كثيرة، منها : أنّ السّورة بمجرد ما معجزة، وآية من آيات الله، وسورت السور طولاً وقصاراً وأوساطاً، تنبيهاً على أنّ الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.

وظهرت له حكمة في التّعليم وتدرّج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله تعالى على عباده لحفظ كتابه.⁽⁴⁾

ويرجع الشيخ النّيفر أن أسماء السور توقيفية، قال : " دلّت الآثار الأحادية العديدة على أنّ أسماء السور توقيفية، أي أنّ التسمية للسور بتوقيف

(1) (على)، سقط من النسخة المخطوطة.

(2) الزركشي، البرهان، 263/1.

(3) المصدر السابق، 263/1.

(4) النيفر (محمّد الشاذلي)، سور القرآن، مخطوط، محفوظ في مكتبته (مكتبة آل النيفر)، ق 3.

من النَّبِيِّ ﷺ، " وهنا أحال الشيخ على كتاب الإِتقان، (ج 1، ص 150)⁽¹⁾ ثم ذكر الأدلة على ذلك منها حديث أبي أمامة الباهلي : " اقرؤوا الزَّهراوين : البقرة وسورة آل عمران "⁽²⁾.

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن عدد السُّور وقال : " قال الزَّرَكشي في البرهان : " اعلم أنَّ عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحلّ والعقد مئة وأربع عشرة سورة كما هو في المصحف العثماني، أولها الفاتحة، وآخرها النَّاس " ⁽³⁾.

وما جاء في مصحف ابن مسعود من أنها مئة واثننا عشرة سورة فلم يكن فيها المَعْوَدتان لشبهة الرقِية، والجواب : عن هذا الاختلاف أنه رجع إلى ما جاء في مصحف عثمان رضي الله عنهما.

ثم انتقل الشيخ إلى عنوان آخر وهو تقسيم القرآن، ولم يتم الكلام عليه.

وللشيخ أيضاً محاضرات في تفسير سورة النساء، ألقاها على طلبته في الكلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين في العام الدراسي 1974/ 1975 م حسبما هو مدوّن على كل محاضرة، بدأها بالحديث عن تسمية سور القرآن وهل هي توقيفية أو لا؛ وكما قلت فإنَّ الشيخ يرجّح أن تكون توقيفية، وقال هنا : "ولا شك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ثبت عنه تسمية بعض السُّور"⁽⁴⁾، وانتهى عند الحديث عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : 3].

(1) وفي طبعة أخرى، (السيوطي)، الإِتقان في علوم القرآن، تعليق مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط 1987، 1 م، 166/1.

(2) جزء من حديث رواه مسلم بهذا اللفظ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم 804، 553/1.

(3) (الزَّرَكشي)، البرهان، مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1957 م، 251/1، وهي الطبعة نفسها التي رجع إليها الشيخ، إذ كتب على الهامش عدد سور القرآن.

(4) النيفر (محمد الشاذلي)، سورة النساء، محاضرات في التفسير، مخطوطة (وهي في 30 ورقة)، محفوظة في مكتبته.

طريقة القرآن في الدعوة :

تحدّث الشيخ النيفر في هذا البحث عن أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى وقال : " تأثير القرآن في جذب القلوب تأثير عجيب، فقد انتشل أمة من الجاهليّة الجهلاء إلى مصافّ الأمم الرّاقية حتّى نبوّت الأُمّة الإسلاميّة مكانتها وأصبحت علماً من أعلام الأمم".⁽¹⁾

ثمّ تحدّث عن الحاجة إلى الدعوة، وقال : " أنزل الله كتابه للهداية للحق لإقامة المجتمع الإنساني على ما ينفعه في معاده ودينه بإصلاح الفرد ومجتمعه، وسلك القرآن لهذه الغاية طريقة هي أقرب الطرق". ثمّ تحدّث عنها، ووصل إلى الحديث عن البشارات والنذارات وقال : " من أنواع الطّريقة القرآنية في الدّعوة التي تختلف باختلاف الأحوال في مقاومة الأمراض الاجتماعيّة المتمثّلة في الأمم المدعوّة، وكذلك في الأفراد طريقتا البشارة والنذارة، كما أنّ الدّعوة سلكت طرقاً أخرى يأتي بيانها"⁽²⁾.

"وقد أخبرنا القرآن بأنّه ممّا سلك أنّه يسلك المسلكين وخاض الغمارين، ترغيباً وترهيباً، وتلييناً للقلوب وتطييناً في أحيان، وتشديداً ووعيداً في أخرى، فالترغيب والتبشير للمتقين، والترهيب والنذارة للمعرضين، «فإنّما يسرّناه بلسانك لتبشّر به المتقين، وتذرّ به قوماً لداً» [مريم : 96]".⁽³⁾

وبعد هذه المقدّمة عرّف البشارة والنذارة لغة : وفي (ق 18) قال إعطاء القرآن كل مقام حقّه، وفي (ق 19) ذكر أمثلة من البشارات والنذارات، مستشهداً بقول الله تعالى «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...» [البقرة : 24 - 25] إلخ.

ثمّ لاحظت أنّ الشيخ النيفر ذكر من ضمن طريقة القرآن في الدّعوة الأمثال وأفردها بعنوان (ق 25)، وأعاد ما ذكره سابقاً عن المثل من تعريفه لغة

1) النيفر (محمد الشاذلي)، طريقة القرآن في الدعوة، مخطوطة (وهي في 45 ورقة)، محفوظة في مكتبته، ق 1.

2) المصدر السابق، ق 15.

3) المصدر السابق، ق 15.

واصطلاحاً وشرح التعريف والمعاني المتفرّعة عنه، وذكر فوائد ضرب المثل في القرآن، وقال في الهامش من الفخر (ج 7، ص 674)، ثم ترك الشيخ فراغاً صفحتين ولعله يريد الحديث فيهما عن مقدّمات القصة في القرآن أو يلحق ما كتبه سابقاً عن القصص القرآني، وتناول بعدها في (ق 37) قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وتكرارها، فقال : " إذا أخذنا في القصص القرآني قصة سيدنا إبراهيم نجدها قد ذكرت في القرآن مرّات، وليس الغرض من ذكرها كل مرّة متّحداً، فإنّ في التّكرار فائدة (ممّا بالغرض الموجود في صورة غير الأخرى) ⁽¹⁾. ثم تحدّث عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السّلام وتكسيده للأصنام، وممّا جاء في العناوين التي وضعها الشيخ : الجوّ الفعلي (ق 40)، المحاكمة (ق 41)، إلهام إبراهيم ومحاكّته لأبيه (ق 45)، ولم يكمل الشيخ الكلام.

وقد ترك الشيخ بعض الفراغات لعله يعيد النظر فيها فيما بعد على عادته من التّثبت في الكلام والدقّة في النّقل.

التفسير ومناهج المفسّرين :

وللشيخ النّيفر محاضرات في التّفسير ومناهج المفسّرين، ألّفها على طلبته في الكليّة الزيتونة منها تفسير آيات الأحكام، لطلبة السّنة الثالثة، حسبما هو مدوّن على الكرّاسة، قال فيها : " تفاوت نسب الأحكام المستخرجة من آيات الأحكام"، وجعل هذا عنواناً؛ ثم قال : إنّ آيات الأحكام تختلف في دلالتها على الأحكام من حيث استعارة الحكم منها، لأنّها من ناحية تلك الحيثية ليست على وتيرة واحدة، بل هي مختلفة لكون الاستنتاج من الآيات إمّا أن يكون صريحاً واضحاً، وإمّا أن يكون استنباطاً واسترواحاً.

أمّا الآيات الصّريحة في ذلك فهي الآيات التي نصّ فيها على الأحكام، وكانت مقيدة لذلك بطريق الأصالة.

والسّور المتضمنة لآيات الأحكام الصّريحة بكثرة هي البقرة وآل عمران، والنّساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة. وهناك سور أخرى تشتمل على آيات صريحة في الأحكام لكنها آيات قليلة بالنّسبة لهاته السّور مثل المجادلة

(1) ما بين قوسين من الهامش، وانظر طريقة القرآن في الدعوة، ق 37.

والطلاق والتحرير. ثم بدأ الشيخ الحديث عن سورة البقرة والآيات التي ورد فيها أحكام، وضرب مثلاً على ذلك آيات القصاص وقال : " فلو أخذنا هذه الآيات الصريحة لوجدناها ناطقة بالحكم التي نبهت عليه، فأيتا القصاص مثلاً نجدهما تدلان بظاهرهما على ما يقتضي وجوب القصاص على المؤمنين في القتلى، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 178-179].

فالدلالة على شرع القصاص لنا دلالة صريحة مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ أي شرع لكم ذلك، وسنزيد هذا إيضاحاً حين نتعرض لبعض آيات الأحكام الهامة.

وأما الآيات التي ليست صريحة في ذلك فهي الآيات التي تؤخذ منها الأحكام بطريق الاستنباط والاستخراج، وهذا القسم الثاني الذي يكون استخراج الأحكام فيه استنباط على نوعين :

النوع الأول : ما يكون استنباط الأحكام تستقل به آية من غير توقف على ضمنية آية أخرى، بل الآية نفسها تفيد الحكم، وتستخرجه منها، دون توقف على غيرها، وهذا مثل استفادة تحريم الاستمناء باليد من قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : 5 - 7].

قال الشيخ النيفر : " إن هذه الآيات الثلاث ليس فيها حكم صريح بتحريم الاستمناء باليد، لكن إذا نظر الناظر واستنبط فإنه يخرج بحكم تحريم ذلك، لأن الله تعالى قد أخبر بالآيات العشر أن من أقام عليهن، ولم يخالف ما فيهن دخل الجنة.

ومن جملة ما يجب أن يقيمه أن يحفظ فرجه إلا على الزوجة أو ما ملك اليمين، فمن ابتغى وراء ذلك من الزوجة وملك اليمين فهو من العادين،

فالمستثنى من الحفظ أمران : الزوجة وملك اليمين، ومن عدا ذلك لا يحلّ، ويدخل في ضمن ما لا يحلّ الاستمناء باليد.⁽¹⁾

وهكذا يتابع الشيخ الحديث عن هذا الموضوع راجعاً إلى تفسير القرطبي (ج 12، ص 105) كما هو مدوّن في الهامش، وبدائع الفوائد لابن قيم الجوزية وأحكام القرآن لابن العربي، والبرهان للزركشي، وغيرها.

ثم ينتقل الشيخ إلى موضوع آخر بعنوان "(طرائق الاستنباط وارتباطها بالمذاهب) وأنّ أخذ الأحكام الشرعية يدور على أقطاب ثلاثة هي الأقطاب الأصلية للاستنباط، واستخراج الأحكام التي تنتظم بها مصالح البشر فتستقيم شؤونهم، وتتوفّر لهم وسائل الاجتماع الضرورية التي تتوقف عليها حاجيات الإنسان"⁽²⁾، ثم شرع الشيخ في ذكرها وهي :

القطب الأول : ضمان نجاعة ما ينظم المصالح البشرية.

القطب الثاني : كيفية الاستثمار للأحكام من الأدلة الشرعية، هو المجال المتأتّى منه إدراك المجتهد الأحكام الشرعية من الأدلة لأنّ الأدلة متلقاة من الشارع الحكيم، ومرجعها كلها إلى النبي (ص) لأنّ القرآن المنزل إنّما تلقيناه منه عليه الصلوة والسلام.

وهنا رجع الشيخ إلى ما كتبه الغزالي في المستصفى (ج 1، ص 9 و ص 315) كما هو مدوّن في الهامش⁽³⁾.

القطب الثالث : الحكم وهو الثمرة المجنية من طرائق الاستنباط المتقدّمة وهو النتيجة التي يتوصّل إليها أصحاب المذاهب بواسطة تلك الطرائق⁽⁴⁾.

(1) النيفر (محمد الشاذلي)، تفسير آيات الأحكام، لطلاب السنة الثالثة، جامعة الزيتونة، مخطوط في مكتبة آل النيفر، ق 3.
(2) المصدر السابق، ق 4.
(3) المصدر السابق، ق 6.
(4) من المصدر السابق، وهي محاضرة مستقلة في (9) ورقات.

ومن جملة ما رأيته في كراسة الشيخ التي كان يحضر فيه الدروس تفسير أوائل سورة التوبة، تكلم فيها عن مقاصد السورة، في أربع ورقات فقط⁽¹⁾.

تنوع طرائق المفسرين :

شرح الشيخ النيفر في محاضرة أخرى بعنوان : " تنوع طرائق المفسرين " وقال : " كان المفسرون على طرائق مختلفة، ذات مناهج متعددة، وذلك أنهم لما وجدوا مجال القول فسيحاً، والميدان واسعاً انفتح أمامهم باب القول فخاض كل واحد منهم فيما تأتى له ورآه أولى من غيره واستعان بقوة العارضة، وما أوتيته من معرفة فأفاض في الباب الذي اختاره لتفسيره.. " ثم انتقل إلى عنوان " منهج أهل السنة (في التفسير) " وتحدث عن تأسيس طريقة أهل السنة، على ما أسسه الإمامان أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي، وعرف بهما، وتكلم عن النقطة الأولى التي انبنت عليها تفاسير أهل السنة، وقال : " وعندي أن تفاسير أهل السنة بدأت من القرن الثالث، وتركزت تفاسيرهم حول دفع المطاعن عن القرآن الكريم، وتعتمد قبل كل شيء على العلوم العربية ومعرفة اللسان العربي. " (2).

"والمقَدِّم من هذه الناحية إمام من أئمة أهل السنة نستهل بحثنا⁽³⁾ (عن) مكانته عند أهل السنة، ثم نبين كيف اعتمد على معرفة اللسان العربي في فهم القرآن، ولا نقصر على ما اقتصر عليه الكاتبون في بحوثهم عن نشأة التفسير وتطوره " وتكلم بعد ذلك عن أبي الطيب الباقلاني وكتابه في إعجاز القرآن وقال : هو في الحقيقة مقدمة للكتب التي جاءت على منهج أهل السنة في التفسير، فهو يذكر أولاً أن الاهتمام يجب أن ينصب على كشف القرآن وذكر شيئاً من مقدمة الباقلاني في الإعجاز، ثم يعلق الشيخ قائلاً : " فالباقلاني شيخ السنة يرى منهجاً خاصاً في التفسير يريد أن توجه إليه هم المفسرين عوضاً

(1) من بداية الكراسة، ق 1 - 4.

(2) النيفر (محمد الشاذلي)، تنوع طرائق المفسرين، ق 14.

(3) من الهامش، وكان الشيخ قد ضرب على كلمة نقدم مكانته، ووضع بدلاً عنها نستهل بحثنا ولعله نسي أن يربط بين الكلام.

عمّا أفاضوا فيه من الكلام على العربيّة التي ولع بها المتوجهون إلى علوم الإعراب".

في منهج أهل السنّة (1) :

قال الشيخ النيفر : " سلك أهل السنّة في التّفسير مسلكاً غير الطّريق الذي سلكه الباقلاني، لا في المبدأ الذي أخذ به أهل السنّة، بل في الأسلوب التّفصيري، ويرجع في نظري تبدّل الأسلوب إلى ثلاثة أمور أساسية، وإن كان النّظر عند التّبسّط والتّفريع يبلغ أكثر من ذلك، وإنّما إذا رجعنا إلى الأصول نجدّها تنحصر فيما ذكرناه :

أولاً : أنّ التّفسير لم يبق في نقطة خاصّة وهي غير أهل السنّة كما صنع الباقلاني، بل أصبح التّفسير للقرآن بصورة كاملة، حيث تناول القرآن من أوله إلى آخره بدون ترك فراغ بين الآيات، بل البحث والشرح يشملان القرآن الكريم كله، من الجهات التي يمكن أن تتناول الآية، فلم يعد النّظر إلى القرآن من جهة خاصّة يتركز عليها التّفسير، وهذا التناول ترتيبي مسير للجمع القرآني، على حسب التّرتيب (التّظيم) الذي في المصحف العثماني إلخ.

ثانياً : خرج التّفسير عن بنائه عن المجادلة مع المعتزلة ، بالخصوص، كما اقتصر الباقلاني على ذلك، بل عاد التّفسير يرمي في أصوله إلى البحث القرآني من النّواحي التي تتطلبها الآيات المبحوث فيها، لكن هذا البحث لا يخرج عن طريقة أهل السنّة ...

ثالثاً : تمتاز تفاسير [أهل السنّة] (2) بتحليل الآيات التي يتمسك بها المخالفون، تحليلاً يتماشى مع الطّريقة السّنيّة، لأنّ البعض من المتأولين يلتمس الآيات التي يلوح أنّ فيها ما يدعم مذهبه، فيأتي إليها ويأخذ في تفسيرها على حسب هواه محملاً لها ما يخالف ظاهرها تأييداً لما ينتحله من مذهب...".

(1) النيفر (محمد الشاذلي)، طرائق المفسرين، ق 30.
(2) زيادة يقتضيها المقام، وذلك أنّ الشيخ أضاف كلمتي (تمتاز تفاسير) على الهامش دون أن يربط بين الكلام.

ثمّ شرع بعد هذه المقدّمة في التعريف بابن عطية الأندلسي، وقال : " قد خطا في المنهج من أهل السنّة عالم من علماء الأندلس، وهو ابن عطية، المعاصر للزمخشري، ويمتاز هذان المفسران بميزة خاصّة، ممّا جعل تفسيريهما يغطّيان على كل التّفاسير، فيقبل الدارسون عليهما حتّى يصبحا هما التّفسيرين الشّهيرين.

وكما اشتهر تفسير الزّمخشري في المشرق، اشتهر تفسير ابن عطية في المغرب، وهذان التّفسيران المشتهران، لكلّ واحد منهما وجهة خاصّة، فتفسير ابن عطية غير تفسير الزّمخشري في وجهته، فالأوّل على مذهب أهل السنّة، والثاني على مذهب الاعتزال⁽¹⁾.

وقال : " وابن عطية هذا هو عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية يكنّى أبا محمّد، من أهل غرناطة المالكي " ⁽²⁾.

" وابن عطية كما قال عنه الطّبي في (بغية الملتمس) فقيه حافظ محدّث مشهور أديب نحوي شاعر بليغ." قال الشيخ النّيفر⁽³⁾ : " ولد ابن عطية (481 هـ / 1088 م) وتوفي كما قال الطّبي في البغية بمدينة لورقة عام (542 هـ / 1147 م)، وقيل سنة (541 هـ / 1146 م) ".
ثمّ عرّف بابن عطية وبطريقته في التّفسير، وقال : " بيّن ابن عطية نفسه في مقدّمته طريقته في تفسيره وخلاصة ذلك أنّه ذكر ما تجنّبه وتحاّشاه، وما بني عليه كتابه.

أمّا ما تجنّبه فأمران :

أحدهما : أن تجنّب جلب القصص إلّا ما كان ضرورياً لشرح الآية، بحيث لا ينفكّ المعنى ويظهر إلّا بما يأتي به فحينئذ يقتصر على محل الحاجة في بيان الآيات من القصص، وبذلك تجنّب الإسرائيليات التي وقع فيها بعض العلماء.

(1) النّيفر (محمّد الشاذلي)، طرائق المفسرين، ق 33.

(2) المصدر السابق، ق 33.

(3) على هامش (ق 34)، من طرائق المفسرين.

ثانيهما : أنه جنبه المزالق التي انزلق فيها أهل البدع فكان تفسيره سليماً من إحاد أهل القول بالرّموز واللغز، وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم...⁽¹⁾

ثمّ قارن بينه وبين المهدي؛ فعرف بالمهدي أولاً ثمّ بطريقته في التفسير على المنهج نفسه الذي اتبعه في التعريف بابن عطية، ثمّ قارن بينهما.

فالمهدي (ت 440 هـ) هو : أحمد بن عمّار المهدي بن أبي العباس أصله من المهديّة ودخل الأندلس له تفسير كبير سمّاه (التّحصيل الجامع لعلوم التّنزيل)⁽²⁾.

وطريقة المهدي أنه يأتي بالأحكام بحسب جملة آيات، ثمّ التفسير والمعنى، ثمّ القراءات ثمّ الإعراب كل على حدة.

وينتقد ابن عطية طريقة المهدي بقوله : " ورأيت أنّ تصنيف التفسير كما صنع المهدي رحمه الله مفرّق للنظر، مشتّت للفكر " ⁽³⁾

ثمّ وازن بين الطّريقتين من خلال نموذج وهو قول الله تعالى ﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ فنقل ما ذكره ابن عطية في تفسيره⁽⁴⁾، ثمّ قال الشيخ النيفر : " إذا نظرنا إلى تفسير المهدي وبين أيدينا منه السّفر الرّابع من (التّحصيل) في تفسير القرآن، نراه بعيداً كل البعد عن تفسير ابن عطية، حيث إنّ المهدي ينظر لمجموعة من الآيات من حيث الأحكام أولاً، ثمّ النسخ، فيأتي بذلك، ثمّ يأتي بالتفسير، أي المعنى ويقتضب ذلك غاية الاقتضاب، ثمّ يأتي بعد

(1) طرائق المفسرين، ق 39.

(2) قمت بتحقيق الجزء الأول منه حتّى سورة البقرة، وحصلت بهذه الدراسة والتّحقيق على درجة الماجستير من الجامعة الأردنية عام 1987 م.

(3) (ابن عطية) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي مجمّد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 1413 هـ - 1993 م، 34/1، وفي المحرّر " مشعب " بدلاً من " مشتّت " وكذا في الطبعة المغربيّة التي رجع إليها الشيخ، بتحقيق المجلس العلمي بفاس، 1395 هـ - 1975 م، 5/1، وهنا لم يعلق الشيخ النيفر على كلام ابن عطية على تفسير المهدي، والذي أراه أنّ تفسير المهدي على عكس ما قيل عنه فهو جامع للنظر، مرتب للفكر، ومنظم للمعلومات. وقد تعرّض الشيخ النيفر إلى ذلك عندما وازن بينه وبين ابن عطية. انظر الشرجي (محمّد) : التّحصيل لفوائد كتاب التّفصيل للمهدي، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير مقدّمة إلى الجامعة الأردنيّة، سنة 1987 م.

(4) أخذت من البحث (4 ورقات)، ق 44_47.
(* يقصد المثال الذي ذكره من آيات الصّيام.

ذلك بالقراءات، ثم بالإعراب، ويضع هذا بجملته من آيات السّورة كما في سورة (يس) حيث ذكر تفسير الآيات من (45) إلى (83)، بينما نرى ابن عطية كما في النصّ المتقدم* يتناول الآية على حسب متطلّباتها من التفسير.⁽¹⁾

ثم يتناول الشيخ مفسراً آخر هو الإمام الرّازي واعتبره من أشهر المفسرين من أهل السّنة. وترجع هذه الشّهرة إلى طريقته في التفسير، حيث إنّ له طريقة خاصّة كانت داعية إلى الإقبال على تفسيره مكتفية به عن غيره، بينما نجد من ينتقد هذه الطّريقة.

وقام بالتّعريف به وأحال على الكتب التي ترجمت له فقال : انظر في ترجمته (ابن خلكان ج 1، ص 474)، وطبقات الشافعية لابن السبكي⁽²⁾.

ثم تحدّث عن تفسيره، فقال : إنّ هذا التفسير يشهد لمؤلفه بالتضلع والاطّلاع الواسع واتساع مدى فكره، وهو - كما قال فيه ابن خلكان - " جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جداً لكنّه لم يكمله"⁽³⁾.

وهذا التفسير يسمّى (مفاتيح الغيب)، ويعرف بـ (التفسير الكبير) ثمّ بيّن سبب التسمية والتأليف من خلال ما ذكره في المقدّمة، ثمّ تناول طريقته في التفسير، وقال بخصوص أسلوبه : « للرازي أسلوب خاصّ في التأليف وطريقة مبتكرة حين يكتب على الموضوعات التي تناولها بالتفسير، وهذه الطّريقة اختراع لم يسبقه إليه سابق، وإلى هذا الاختراع في الأسلوب، يشير ابن خلكان في وفياته بقوله : "وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه، وأتى بما لم يسبق إليه" ». ⁽⁴⁾

ويقصد ابن خلكان بالترتيب أنّه لا يتكلم على الموضوع مبعثراً، بل ينظّم الكلام عليه، فإنّه يحصر بحوثه في مسائل ثمّ إنّ في المسألة ذاتها، ينظّمها كذلك، مثلاً بإيرادات الخصم، ثمّ يناقش، إجابة عنها.

(1) النيفر (محمّد الشاذلي)، طرائق التفسير، ق 47.

(2) من هامش، ق 49.

(3) المصدر السابق، ق 50.

(4) ابن خلكان، ج 1، ص 474، (من هامش ق 51).

وذكر مثلاً على ذلك من تفسيره وهو قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : 31].

وقال الشيخ النيفر - تحت عنوان : **طريقته السنية** - " أبرز الرازي مذهب أهل السنة وهم الأشاعرة في تفسيره، حيث ركز تفسيره على المذهب الأشعري باذلاً كل جهد لإقرار هذا المذهب، في العقول مظهراً حجة ما ذهب إليه أهل السنة، ومبطلاً ما ذهب إليه المعتزلة". ويأتي الشيخ بمثال على ذلك للتوضيح وهو قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6]. فقال الشيخ : " هناك خلاف بين أهل السنة والمعتزلة في تكليف ما لا يطاق، وأن أهل السنة احتجوا بهذه الآية وأشباهاها على ذلك". وينقل عن الرازي هذه المسألة من كتابه⁽¹⁾.

وكتب الشيخ النيفر - تحت عنوان : **النقل والشخصية** - ما يلي : " يطالع الواقف على تفسير الرازي أنه فيه لم يقتصر على جانب واحد، بل كان له جانبان، وهما الجانبان الأساسيان في التفسير، أعني النقل والاعتماد على التأويل الشخصي، فكما وفي حق الأول، وفي حق الثاني، فإنه اعتمد على مصادر متعددة في تفسيره، كاعتماده على ابن عباس رضي الله عنهما (...). لكن هذا النقل لم يمنع الرازي أن يكون له في تفسيره شخصية بارزة، فاستخراج المسائل المتعددة من القرآن الكثير لم يكن ذلك وليد النقل، بل كان ذلك وليد التفكير الشخصي، فاستنباطاته لا تجدها في تفسير آخر، بل هي من اختصاصات هذا التفسير، وهي ليست بالقليلة بل هي كثيرة فيه". ثم يقول : " ومن أبرز مظاهر التأليف أسلوبه في التأليف الذي هو أسلوب مبتكر كما قدّمنا "⁽²⁾

وتعرض الشيخ النيفر إلى تنوع ثقافة الرازي وقال : " وهذا التوسع في الثقافة قد أخذ على الرازي حتى قيل فيه كل شيء إلا التفسير، مع أن الأمر

(1) النيفر (محمد الشاذلي)، طرائق التفسير، مخطوط، ق 54، و(الرازي)، مفاتيح الغيب، 38/2.

(2) المصدر السابق، ق 56.

ليس كذلك فبجانب ما فيه من توسّع ثقافة فيه التفسير كذلك، فمصادره التفسيرية تبين أنه جمع خلاصة التفسير مع ما أضافه إلى ذلك بتوسّع⁽¹⁾.

وتناول الشيخ النيفر موضوع التفسير بالرأي عند الفرق المبتدعة دون أن يتوسّع فيه،⁽²⁾ فبدأه بمقدمة قصيرة حول ظهور الفرق فقال : " أخذ التفسير يتجه اتجاهاً غير الذي عرف زمن النبوة والتابعين، حيث قامت الفرق المختلفة، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة " ⁽³⁾.

وأضاف قائلاً : أن الفرق الإسلامية في أصولها خمس : أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وعن هذه الفرق تفرعت فرق متنوعة، وهؤلاء نظروا إلى القرآن من خلال عقائدهم، وفسّروه بما يتلاءم مع مذاهبهم.

ثم تكلم عن المعتزلة، وأنهم طبقوا القرآن على أصولهم الخمسة وهي : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال - تحت عنوان : ما تبني عليه تفاسير المعتزلة - " وقد بنى المعتزلة تفاسيرهم على هذه الأصول، وهي لا تتفق مع أصول أهل السنة، فكان من الضروري أن يجادلوا ويردّوا حجج خصمهم ففسّروا القرآن تفسيراً يتفق مع ما ذهبوا إليه، وتوصلوا لهذا كانت لهم مبادئ في تفسيرهم"⁽⁴⁾، ثم تكلم عن المبدأ اللغوي، فقال : " ومن مبادئهم التي توصّلوا بها إلى أصولهم المبدأ اللغوي، فعندما يجدون في القرآن ما لا يتماشى مع أحد أصولهم، يحاولون أولاً إبطال المعنى الذي يرونه منافياً لمقصدهم، ثم ثانياً يثبتون الذي يريدون تأويله، معنى موجوداً في اللغة، يتفق مع مذهبهم، ويستشهدون على ما ذهبوا إليه بأدلة لغوية ينقّبون عنها."⁽⁵⁾ ويضرب الشيخ مثلاً لذلك وهو تأويل قول الله تعالى ﴿ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22_23]، لأنهم يجعلون

(1) النيفر (محمّد الشاذلي)، طرائق التفسير، ق 56.

(2) خصص له أربع ورقات فقط (من ق 57 إلى ق 60).

(3) المصدر السابق، ق 57.

(4) المصدر السابق، ق 59.

(5) النيفر (محمّد الشاذلي)، طرائق التفسير، ق 59.

النَّظَر إليه محالاً، كما قال الزّمخشري في الكشّاف، عند تفسير قوله تعالى هذا... ويتابع الشّيخ الحديث عن ذلك.

وتحت عنوان التّأويلات المجازيّة والتمثيلية، يرجع الشّيخ إلى ما قاله "جولد زيهر" في كتابه (مذاهب التّفسير الإسلامي) فيقول: "والأكثر من هذا هو اعتمادهم في طريقتهم على الفروض المجازيّة في الكلام، فالقرآن يمثل القمّة العالية في كمال الأسلوب والنّظم، فهو في نفسه يقبل ذلك، ويحتوي على كل أنواع الجمال البديع في الأسلوب كالمجازات والاستعارات وما أشبه ذلك، وعلى هذا الأساس فسروا العبارات التشبيهية في كتاب الله، من ذلك ما فسرّ به الزّمخشري «ثُمَّ اسْتَوَى» [فصلت: 11] (1).

الخلاصة:

بعد هذا العرض عن الشّيخ النّيفر وجهوده في علوم القرآن يتبيّن لي أنّ الشّيخ كانت له جهود طيّبة في علوم القرآن، وهي بحق جهود طيّبة أصيلة ومفيدة، تستحق أن تخرج إلى النور.

ويلاحظ أنّ الشّيخ كما كان عالماً بالحديث واللغة والأدب، فهو عالم محقّق ومدقّق في علوم القرآن أيضاً، وذلك من خلال تعليقاته، وتصويباته على هوامش الكتب التي طالعتها في مكتبته، ولم يكن مجرد ناقل عن الآخرين، بل كانت له التّأليف العلميّة القويّة في التّأليف والتّخريج والتّرجيح، والاستقلال بالرّأي؛ فكان كثيراً ما يقول: "وعندي أنّ الأمر كذا" أو "أنّ المسألة كيت وكيت" أو "يرجع في نظري إلى كذا وكذا" وهذا دليل على سعة علمه واطّلاعه.

وإنّ ممّا يميّز به الشّيخ أنّه دائم النظر في بحوثه وكتاباته (2)، فلهذا تجد عدّة تعليقات وتصويبات لما يكتب، سواء في البحث نفسه من تشطيب وإضافة

(1) لم أجد هذا الكلام بلفظه وإنّما وجدته بمعناه، إيقناز (جولدزيهر): مذاهب التّفسير الإسلامي، ترجمة وتحقيق، عبد الحليم محمود، دار اقرأ، بيروت، ط 1، 1403 هـ/ 1983، ص 153-154.

(2) وهذا ما أثبتّه نور الدين صمّود في مقاله عن الشّيخ بعنوان "جوانب واضحة خفية من شخصيّة الشّيخ محمّد الشاذلي النّيفر" المنشور ضمن كتاب (بحوث ودراسات مهداة إلى الشّيخ محمّد الشاذلي النّيفر) ص 69، يقول "لقد رأيت الشّيخ في عدّة مناسبات يتحرّى في تآليفه وتحقيقاته، فيفتح اليوم ما دونه بالأمس ويضيف ما يحنّ له بعد ذلك، ويصلح ما يتبيّن له من المصادر أنّه الصّواب"، أقول: لقد صدق فيما قال، وما رأيته في كتب الشّيخ أصدق دليل على ذلك.

وتعديل أم على الهامش، وهذا ما ربّى عليه الشّيخ رحمه الله تعالى أولاده وتلاميذه، في أن يَتَّبِعُوا من أيّ قول أو نقل قبل أن يتكلّموا به، وخاصّة أمام العامّة (1)، بالإضافة إلى عزو القول إلى قائله، فكان الشّيخ يذكر المصادر والمراجع التي أخذ منها أو نقل عنها، مع تحديد الجزء والصفحة، ثمّ إنّه قد يعيد كتابة البحث أو الدّرس أكثر من مرّة كما فعل في الأمثال والبشارات والنّذارات و"من عجائب القرآن"، رأينا كيف أعاد كتابة البحث بعنوان "من معجزات القرآن" والمضمون واحد وهو : فتح بيت المقدس؛ أو يعيد قراءة ما كتب فيصحّ أو يضيف؛ مصداقاً لما قاله العماد الأصفهاني : " إنّي رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلّا قال في غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النّقص على جملة البشر " (2) وهذا ما كان يفعله شيخنا، فقد كنت كثيراً ما أجد قوله على بعض بحوثه فيه نظر أو يعاد النّظر فيه.

وخير ما أختّم به الحديث عن الشّيخ النّيفر وإسهاماته في علوم القرآن كلمات قالها الشّيخ في آخر مقال (القرآن مصدر العزّة والسّعادة) المنشور في (مجلة المنهل)، تظهر مدى حرصه على القرآن الكريم وعلومه والعمل به : "فاعاملون لهدم الإسلام يرون أنّ القرآن هو الحصن المتين الواقف في وجوههم لذلك يبذلون الرّخيص والغالي، في سبيل لفت نظرنا عنه بكلّ الوسائل، فدحضنا لعملهم يتعيّن علينا جميعاً أن نكون عاملين للقرآن، باذلين في سبيله المهج الغالية (3) ...".

(1) هذا ما سمعته من ابنه الطّاهر النّيفر في مكتبة آل النّيفر، صباح يوم الخميس 2009/1/29 م.

(2) (حاجي خليفة)، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1413 - 1992م، 17/1، وانظر القنوجي (صديق حسن)، الحطة في ذكر الصّحاح الستّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1405 هـ/ 1985 م، 32/1.

(3) النّيفر (محمّد الشاذلي)، مجلة المنهل، المجلد 33، السنة 38، الجزء 10، شوال 1396 هـ/ نوفمبر ديسمبر 1972 م، ص 1022.